الحَدِيثُ الرَابِعُ والعِشْرُونَ

عَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَرْوِيهِ عَن رَبِّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ» [رَوَاهُ مُسْلِمٌ][1].

هَذَا حَدِيثٌ عَظِيمٌ يَرْوِيهِ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ رَبِّهِ، وَهُوَ مَا يُسَمَّى بِالحَدِيثِ القُدْسِيِّ، نِسْبَةً إِلَى القُدْسِ، وَهُوَ الطُّهْرُ؛ لأَنَّ الحَدِيثَ عَلَى قِسْمَينِ:

الأَوَّلُ: حَدِيثٌ قُدْسِيٌّ، وَهُوَ مَا كَانَ مِنْ كَلَامِ اللَّـهِ سُبْحَانَهُ لَفْظُهُ وَمَعْنَاهُ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

الثَّانِي: حَدِيثٌ نَبَوِيٌّ، وَهُوَ مَا كَانَ مِنْ كَلَامِ الرَّسُولِ ﷺ.

فَالحَدِيثُ القُدْسِيُّ لَفْظُهُ وَمَعْنَاهُ مِنَ اللَّـهِ، وَيَرْوِيهِ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ رَبِّهِ، بِلَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ، وَأَمَّا الحَدِيثُ النَّبَوِيُّ فَمَعْنَاهُ مِنَ اللَّـهِ، أَيْ: هُوَ وَحْيٌ مِنَ اللَّـهِ، وَلَفْظُهُ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ.

فَفِي هَذَا الحَدِيثِ أُمُورٌ عَظِيمَةٌ:

قَوْلُهُ ـ سُبْحَانَهُ: «**يَا عِبَادِي**» وَتَكْرَارُ ذَلِكَ مَعَ كُلِّ فَقْرَةٍ مِنْ فَقَرَاتِ الحَدِيثِ يَدُلُّ عَلَى تَلَطُّفِ اللَّـهِ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ بِعِبَادِهِ، وَرَأْفَتِهِ بِهِمْ، فَإِنَّهُ غَنِيٌّ عَنْهُمْ، وَمَعَ ذَلِكَ يَدْعُوهُمْ، وَيُؤَكِّدُ عَلَيْهِمْ؛ لِأَجْلِ مَصْلَحَتِهِمْ.

وَالعِبَادُ: جَمْعُ عَبْدٍ، **وَالعُبُودِيَّةُ**: هِيَ التَّذَلُّلُ وَالخُضُوعُ لِلَّـهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَكُلُّ النَّاسِ مُؤْمِنِهِمْ وَكَافِرِهِمْ، وَجِنِّهِمْ وَإِنْسِهِمْ، وَمَلَائِكَتِهِمْ، كُلُّ الخَلْقِ عِبَادٌ لِلَّـهِ بِالمَعْنَى العَامِ، كُلُّهُمْ عِبَادٌ لِلَّـهِ مَمْلُوكُونَ لَهُ، يَتَصَرَّفُ فِيهِم، مَخْلُوقُونَ لِلَّـهِ، لَا أَحَدَ يَخْرُجُ عَنْ هَذَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مَرْيَم: ٩٣]، وَهَذِهِ عُبُودِيَّةُ قَهْرٍ وَاضْطِرَارٍ، لَا أَحَدَ يَخْرُجُ عَنْهَا، تَجْرِي عَلَيْهِمْ أَقْدَارُ اللَّـهِ وَقَضَاؤُهُ.

النَّوْعُ الثَّانِي: عُبُودِيَّةٌ خَاصَّةٌ، وَهِيَ عُبُودِيَّةُ الاخْتِيَارِ، وَتَكُونُ بِطَاعَةِ اللَّـهِ تَعَالَى وَالانْقِيَادِ لَهُ، وَهِي بِاخْتِيَارِ العَبْدِ إِنْ شَاءَ فَعَلَهَا وَإِنْ شَاءَ تَرَكَهَا، فَهِيَ عُبُودِيَّةٌ خَاصَّةٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحِجْر: ٤٢]، ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ المُرَادُ العُبُودِيَّةُ الخَاصَّةُ وَهُمُ المُؤْمِنُونَ، لَيْسَ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ؛ لِأَنَّ اللهَ قَدْ حَمَاهُمْ مِنْهُ، بِسَبَبِ أَنَّهُمْ لَجَأُوا إِلَى اللَّـهِ وَعَبَدُوهُ سُبْحَانَهُ، فَهَذِهِ عُبُودِيَّةٌ خَاصَّةٌ. فَاللهُ يُخَاطِبُ جَمِيعَ العِبَادِ ـ

العُبُودِيَّةَ العَامَّةَ، وَالعُبُودِيَّةَ الخَاصَّةَ ـ فَيَقُولُ: «يَا عِبَادِي» بِهَذَا النِّدَاءِ الإِلَهِيِّ.

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: «إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا» الظُّلْمُ فِي اللُّغَةِ: وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، وَهُوَ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:

القِسْمُ الأَوَّلُ: ظُلْمٌ بَيْنَ العَبْدِ وَرَبِّهِ، وَذَلِكَ بِالشِّرْكِ، وَهَذَا لَا يَغْفِرُهُ اللهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لُقْمَان: ١٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأَنْعَام: ٨٢]، يَعْنِي بِشِرْكٍ، هَذَا لَا يَغْفِرُهُ اللهُ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النِّسَاء: ٤٨].

النَّوْعُ الثَّانِي: ظُلْمٌ بَيْنَ العَبْدِ وَنَفْسِهِ، وَذَلِكَ بِالمعَاصِي وَالسَّيِّئَاتِ فَهُو الذِي ظَلَمَ نَفْسَهُ، يَعْنِي وَضَعَهَا فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا اللَّائِقِ بِهَا، ظَلَمَ نَفْسَهُ فِيمَا دُونَ الشِّرْكِ، وَهَذَا يَغْفِرُهُ اللهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ لِمَنْ يَشَاءُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّسَاءُ: ٤٨].

النَّوْعُ الثَّالِثُ: ظُلْمٌ بَيْنَ الإِنْسَانِ والنَّاسِ، بِالتَّعَدِّي عَلَيْهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ وَدِمَائِهِمْ، وَهَذَا لَا يَغْفِرُهُ اللهُ إِلَّا إِذَا سَمَحَ المَظْلُومُونَ، وَإِلَّا فَلَابُدَّ أَنْ يُقْتَصَّ لِلمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ؛ لِأَنَّهُ حَقٌّ مَخْلُوقٍ لَا يَسْقُطُ إِلَّا بِعَفْوِهِ أَوِ اسْتِيفَائِهِ، وَاللهُ تَعَالَى حَرَّمَ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِهِ، يَعْنِي: مَنَعَ نَفْسَهُ مِنَ الظُّلْمِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَلِيقُ بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَلَا يُعَذِّبُ أَحَدًا بِغَيْرِ عَمَلِهِ، لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بِمَا عَمِلَ، وَهَذَا هُوَ العَدْلُ، أَمَّا لَوْ عَذَّبَهُ عَلَى شَيْءٍ لَمْ يَعْمَلْهُ، فَهَذَا ظُلْمٌ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ مُنَزَّهٌ عَنْهُ؛ لِقَوْلِهِ: «إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي».

قَوْلُهُ: «وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ» أَيْ بَيْنَ العِبَادِ، «مُحَرَّمًا» حَرَّمَ اللهُ الظُّلْمَ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَأْخُذُ الظَّالِمِينَ وَيُهْلِكُهُمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبْرَاهِيم: ٤٢]، فَمَهْمَا ظَلَمَ الإِنْسَانُ وَتمَادَى فَإِنَّهُ لَابُدَّ أَنْ يُوَاجِهَ وَيُلَاقِي ظُلْمَهُ عَاجِلاً أَوْ آجِلاً، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِمُعَاذٍ رضي الله عنه: «وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»(١) سَوَاءً كَانَ المَظْلُومُ مُسْلِمًا أَوْ كَافِرًا، لَا يَجُوزُ ظُلْمُ أَحَدٍ، حَتَّى الكُفَّارِ لَا يَجُوزُ ظُلْمُهُمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المَائِدَة: ٨]، وَدُعَاءُ المَظْلُومِ مُسْتَجَابٌ وَلَوْ كَانَ كَافِرًا؛ لِأَنَّ اللهَ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ لَا يَرْضَى بِالظُّلْمِ وَالتَّعَدِي.

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: «فَلَا تَظَالَمُوا» أَيْ لَا يَظْلِمْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، هَذَا تَحْذِيرٌ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ تَظَالُمِ العِبَادِ، وَقَدْ حَذَّرَ اللهُ مِنْ الظُّلْمِ فِي كِتَابِهِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَتَوَعَّدَ الظَّالِمِينَ، وَضَرَبَ لَنَا الأَمْثِلَةَ للظَّلَمَةِ الذِينَ أَخَذَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، تَحْذِيرًا لَنَا مِنَ الظُّلْمِ، وَمِنْ عَادَةِ الإِنْسَانِ أَنَّهُ ظَلُومٌ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأَحْزَاب: ٧٢]، إِلَّا مَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِ بِالدِّينِ وَالإِيمَانِ فَإِنَّهُ يَتَطَهَّرُ مِنْ هَذِهِ الخَصْلَةِ. قَالَ المُتَنَبِّيُّ:

والظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النُّفُوسِ فَإِنْ تَجِدْ ... ذَا عِفَّــةٍ فَلِعِلَّــةٍ لا يَظْلِــم(٢)

قَالَ سُبْحَانَهُ: «يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ» كُلُّ العِبَادِ ضَالُّونَ عَنِ الحَقِّ، إِلَّا مَنْ هَدَاهُ اللهُ، أَيَّ: دَلَّهُ وَأَرْشَدَهُ

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٥)، ومسلم (١٩).

(٢) انظر: ديوان المتنبي (١/ ١٦٦).

إِلَى الحَقِّ وَثَبَّتَهُ، فَلَوْلَا هِدَايَةُ اللَّـهِ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ، وَإِنْزَالِ الكُتُبِ، وَنَصْبِ الأَدِلَّةِ لِلنَّاسِ لَبَقَوْا فِي ضَلَالِـهِمْ، وَلَكِنَّ اللهَ مِنْ رَحْمَتِهِ بِهِمْ هَدَاهُمْ، وَدَلَّهُمْ، وَأَرْشَدَهُمْ، وَوَفَّقَهُمْ، وَثَبَّتَهُمْ، وَالـهِدَايَةُ عَلَى قِسْمَينِ:

الأَوَّلُ: هِدَايَةٌ بِمَعْنَى البَيَانِ وَالإِرْشَادِ، وَهَذِهِ حَاصِلَةٌ لِكُلِّ أَحَدٍ، فَاللهُ قَدْ هَدَى النَّاسَ جَمِيعًا المؤْمِنِينَ وَالكُفَّارَ، بِمَعْنَى أَنَّهُ بَيَّنَ لَهُمْ وَأَرْشَدَهُمْ وَدَلَّهُمْ عَلَى الصَّوَابِ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ، وَإِنْزَالِ الكُتُبِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [البَقَرَة: ٣٨]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فُصِّلَت: ١٧]، ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ يَعْنِي دَلَلْنَاهُمْ عَلَى الإِيمَانِ، وَعَلَى الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَقْبَلُوا الهُدَى، بَلِ اسْتَحَبُّوا العَمَى عَلَى الهُدَى، هَذِهِ هِدَايَةٌ عَامَّةٌ.

الثَّانِي: هِدَايَةٌ خَاصَّةٌ، وَهِيَ هِدَايَةُ التَّوْفِيقِ وَالقَبُولِ، وَهَذِهِ لَا يَنَالُهَا إِلَّا أَهْلُ الإِيمَانِ، فَقَوْلُهُ: «**كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ**» يَعْنِي: وَفَّقْتُهُ لِلْحَقِّ، وَهِيَ: الهِدَايَةُ الخَاصَّةُ، أَمَّا الهِدَايَةُ العَامَّةُ فَهِيَ حَاصِلَةٌ لِكُلِّ أَحَدٍ.

قَوْلُهُ: «**فَاسْتَهْدُونِي**» أَيْ: اطْلُبُوا مِنِّي الهِدَايَةَ، بِأَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ اهْدِنِي، اللَّهُمَّ دُلَّنِي عَلَى الخَيْرِ، اللَّهُمَّ وَفِّقْنِي لَهُ، اللَّهُمَّ ثَبِّتْنِي عَلَيْهِ، تُكْثِرُ مِنَ الدُّعَاءِ أَنْ يَهْدِيَكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

«**أَهْدِكُمْ**» هَذَا جَوابُ الأَمْرِ، فَمَنْ طَلَبَ مِنَ اللَّـهِ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ الهِدَايَةَ بِصِدْقٍ وَإِقْبَالٍ وَرَغْبَةٍ هَدَاهُ؛ لِأَنَّهُ قَرِيبٌ مجِيبٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَقَدْ وَعَدَ أَنَّ مَنِ اسْتَهْدَاهُ فَإِنَّهُ يَهْدِيهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يُخْلِفُ وَعْدَهُ. فَهَذَا مِمَّا يُؤَكِّدُ عَلَى العَبْدِ أَنْ يُكْثِرَ مِنْ سُؤَالِ اللَّـهِ الهِدَايَةَ.

قَالَ: «يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ» الرِّزْقُ مِنَ اللَّـهِ جَلَّ وَعَلَا، فَهُوَ الرَّزَّاقُ، وَلَوْلَا رِزْقُهُ لجَاعَ النَّاسُ وَجَاعَتِ المَخْلُوقَاتُ، وَلَكِنَّ اللهَ يَقُومُ بِرِزْقِهَا وَإِيصَالِ الرِّزْقِ إِلَيْهَا تَفَضُّلاً مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَالرِّزْقُ لَيْسَ بِحَوْلِنَا وَلَا قُوَّتِنَا وَإِنَّمَا هُوَ تَفَضُّلٌ مِنَ اللَّـهِ، لَكِنْ نَحْنُ نَعْمَلُ الأَسْبَابَ لِطَلَبِ الرِّزْقِ، وَالنَّتَائِجُ بِيَدِ اللَّـهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قَالَ: «يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ» عَارٍ مِنَ الثِّيَابِ التِي يَسْتُرُ بِهَا عَوْرَتَهُ، وَيَسْتَدْفِئُ بِهَا وَيَتَجَمَّلُ بِهَا، هَذِهِ مِنَ اللَّـهِ جَلَّ وَعَلَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ﴾ [الأَعْرَاف: ٢٦]، ﴿يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ يَعْنِي: يَسْتُرُ عَوْرَاتِكُمْ، ﴿وَرِيشٗاۖ﴾ يَعْنِي زِينَةً وَجَمَالاً، فَاللِّبَاسُ عَلَى قِسْمَيْنِ:

الأَوَّل: لِبَاسٌ لِسَتْرِ العَوْرَةِ.

الثَّاني: لِبَاسٌ للتَّجَمُّل.

قَوْلُهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ: «**فَاسْتَكْسُونِي**» أَيِ اطْلُبُوا مِنِّي الكِسْوَةَ «**أَكْسُكُمْ**»؛ لِأَنَّ اللهَ قَرِيبٌ مجِيبٌ، فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى ضَعْفِ الإِنْسَانِ وَحَاجَتِهِ إِلَى اللَّـهِ، إِذَا كَانَ لَا يَمْلِكُ طَعَامَهُ، وَلَا يَمْلِكُ كِسْوَتَهُ، إِلَّا بِأَنْ يَطْلُبَ مِنَ اللَّـهِ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْهِ، فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى ضَعْفِهِ، وَدَلِيلٌ عَلَى فَضْلِ اللَّـهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَهُوَ الذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَهُوَ الذِي كَسَانَا مِنْ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قَوْلُهُ: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ» **تُخْطِئُونَ**: تَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ، وَالخَطَايَا؛ لِأَنَّ هَذِهِ طَبِيعَةُ الإِنْسَانِ، أَنَّهُ كَثِيرُ الخَطَإِ، قَالَ ﷺ:

«كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»(١)، فَالعِبَادُ يُخْطِئُونَ خَطَايَا كَثِيرَةً، وَهُمْ بِحَاجَةٍ إِلَى أَنْ يَطْلُبُوا مِنَ اللَّـهِ تَعَالَى المَغْفِرَةَ لهَذِهِ الخَطَايَا، وَلَا أَحَدَ مَعْصُومٌ إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَالعِلَاجُ أَنْ تَسْتَغْفِرَ وَتُكْثِرَ مِنَ الاسْتِغْفَارِ، فَإِذَا اسْتَغْفَرْتَ اللهَ غَفَرَ لَكَ، «فَاسْتَغْفِرُونِي» أَيْ اطْلُبُوا مِنِّي المَغْفِرَةَ لِأَخْطَائِكُمْ، «أَغْفِرْ لَكُمْ» وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه: ٨٢]، وَمِنْ أَسْمَائِهِ الغَفُورُ وَالغَفَّارُ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ كَثِيرُ المَغْفِرَةِ وَاسِعُ المَغْفِرَةِ لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ(٢)، فَلَا أَحَدَ يُزَكِّي نَفْسَهُ وَيَقُولُ: أَنَا صَالِحٌ، أَنَا تَقِيٌّ، أَنَا أَعْمَلُ الطَّاعَاتِ. بَلْ لَابُدَّ أَنْ يَقَعَ مِنْهُ أَخْطَاءٌ، فَهُوَ بِحَاجَةٍ إِلَى الاسْتِغْفَارِ، مَهْمَا بَلَغَ مِنَ الصَّلَاحِ وَالأَعْمَالِ، وَاللهُ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ يَغْفِرُ الكُفْرَ وَالشِّرْكَ لِمَنْ تَابَ وَاسْتَغْفَرَ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ مِنَ الذُّنُوبِ جَمِيعًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزُّمر: ٥٣]، فَلَيْسَ هُنَاكَ ذَنْبٌ يَخْرُجُ عَنْ مَغْفِرَةِ اللَّـهِ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١)، والدارمي (٢٧٢٧)، وأحمد في المسند (٢/ ٣٨٤)، (٣/ ١٩٨)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٦٢)، وأبويعلى في مسنده (٥/ ٣٠١)، والحاكم في المستدرك وصححه (٤/ ٢٧٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٢٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في النونية:

وهو الغفور فلو أتى بقرابها ... من غير شرك بل من العصيان
لأتاه بالغفران ملء قرابها ... سبحانه هو واسع الغفران

انظر: النونية بشرح ابن عيسى (٢/ ٢٣١).

أَبَدًا، فَلَا تَيْأَسْ مِنْ رَحْمَةِ اللَّـهِ وَمَغْفِرَتِهِ وَتَتْرُكَ التَّوْبَةَ وَالاسْتِغْفَارَ، وَلَا تَقُلْ: إِنَّ هَذَا الذَّنْبَ لَا يُغْفَرُ، بَلْ بَادِرْ بِالاسْتِغْفَارِ صَادِقًا، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

ثُمَّ قَالَ ـ سُبْحَانَهُ ـ: «**يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي**» اللهُ غَنِيٌّ عَنْ عِبَادِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَمَنْ كَفَرَ وَأَشْرَكَ وَعَصَى اللهَ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا، وَإِنَّمَا يَضُرُّ نَفْسَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبْرَاهِيم: ٨]، فَهُوَ سُبْحَانَهُ لَيْسَ بِحَاجَةٍ إِلَى عِبَادَتِنَا وَطَاعَتِنَا، وَإِنَّمَا أَمَرَنَا بِهَا لِحَاجَتِنَا نَحْنُ إِلَيْهَا فَضْلاً مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، «**وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي**» مَهْمَا فَعَلْتَ الطَّاعَاتِ وَالحَسَنَاتِ فَإِنَّكَ لَا تَنْفَعُ اللهَ بِهَا، وَإِنَّمَا تَنْفَعُ نَفْسَكَ، فَأَنْتَ الذِي بِحَاجَةٍ إِلَيْهَا، «**وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي**» فَاللهُ لَا يَتَضَرَّرُ بِالمَعَاصِي، وَلَا يَنْتَفِعُ بِالطَّاعَاتِ؛ لِأَنَّهُ غَنِيٌّ عَنْ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا هَذَا يَرْجِعُ إِلَى العَبْدِ، طَاعَتُهُ لَهُ وَمَعْصِيَتُهُ عَلَيْهِ، فَاللهُ هُوَ النَّافِعُ الضَّارُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قَالَ ـ سُبْحَانَهُ ـ: «**يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ**» أَوَّلُ الخَلِيقَةِ وَآخِرُ الخَلِيقَةِ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، «**لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ**» وَهُمْ بَنُو آدَمَ «**وَجِنَّكُمْ**» وَهُم العَالَمُ الثَّانِي، الجِنُّ عَالَمٌ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ لَا نَرَاهُمْ؛ وَلِذَلِكَ سُمُّوا بِالجِنِّ مِنَ الاجْتِنَانِ وَهُوَ الاخْتِفَاءُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعْرَاف: ٢٧]، فَهُمْ مَوْجُودُونَ وَيَعِيشُونَ مَعَنَا، وَمِنْهُمْ مُؤْمِنٌ وَكَافِرٌ، وَمِنْهُمْ مُطِيعٌ وَعَاصٍ، وَمِنْهُمْ بَارٌّ وَشَقِيٌّ، مِثْلَ بَنِي آدَمَ، وَهُمْ عَالَمٌ مِنْ عَالَمِ الغَيْبِ لَا نَرَاهُمْ.

قَالَ ـ سُبْحَانَهُ ـ: «**كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ**» لَوْ كَانُوا كُلُّهُمْ صَالِحِينَ بَرَرَةً لَا يَقَعُ مِنْهُمْ خَطَأٌ «**مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا**»؛ لَأَنَّ

اللهَ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ لَا تَنْفَعُهُ طَاعَةُ المُطِيعِ؛ لِأَنَّهُ غَنِيٌّ عَنْ ذَلِكَ، فَمُلْكُ اللَّـهِ تَامٌّ، وَلَا تَزِيدُهُ طَاعَةُ الطَّائِعِينَ.

قَالَ ـ سُبْحَانَهُ ـ: «لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ» لَوْ كَفَرَ النَّاسُ جَمِيعًا، فَإِنَّ مُلْكَ اللَّـهِ تَامٌّ وَلَا يَنْقُصُ بِسَبَبِ كُفْرِ المخْلُوقِين، إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا؛ وَلِـهَذَا قَالَ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبْرَاهيم: ٨]، فَلَا يَغْتَرَّ الإِنْسَانُ بِعَمَلِهِ وَطَاعَاتِهِ وَيَمُنَّ عَلَى اللَّـهِ تَعَالَى بِهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحُجُرَات: ١٧] فَالمِنَّةُ لِلَّـهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قَالَ ـ سُبْحَانَهُ ـ: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ» الصَّعِيدُ: مَا تَصَاعَدَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، «فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ» يَعْنِي: فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ، فَإِذَا اجْتَمَعَ الخَلْقُ كُلُّهُمْ جِنُّهُمْ وَإِنْسُهُمْ أَوَّلُهُمْ وَآخِرُهُمْ وَكُلُّ وَاحِدٍ سَأَلَ اللهَ حَاجَاتِهِ. قَالَ: «فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي»؛ لِأَنَّ «يَمِينُ اللَّـهِ مَلأَى لَا يُغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»[1]، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [المُنَافِقُون: ٧]، فَلَا تَنْقُصُ خَزَائِنُ اللَّـهِ بِالإِنْفَاقِ أَبَدًا، فَالمَخْلُوقُ الذِي يُنْفِقُ يَنْقُصُ مَالُهُ وَيَنْقُصُ مَا عِنْدَهُ، أَمَّا اللهُ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ فَإِنَّهُ يُنْفِقُ عَلَى جَمِيعِ الخَلْقِ، وَلَا يُنْقِصُ ذَلِكَ مِنْ خَزَائِنِهِ شَيْئًا؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ غَنِيٌّ الغِنَى المُطْلَقَ، «فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ» عَلَى كَثْرَةِ السَّائِلِينَ: الإِنْسِ وَالجِنِّ وَالأَوَّلِينَ

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤١٩)، ومسلم (٩٩٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَالآخِرِينَ، وَكُلُّ وَاحِدٌ لَهُ مَسْأَلَةٌ خَاصَّةٌ، وَقَدْ أَعْطَاهُ اللهُ مَسْأَلَتَهُ، فَإِنَّ هَذَا لَا يُنْقِصُ مِنْ خَزَائِنِ اللَّـهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هَذَا يَدُلُّ عَلَى غِنَاهُ وَكَرَمِهِ وَجُودِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَكُلُّ المخْلُوقَاتِ تَتَعَيَّشُ مِنْ رِزْقِ اللَّـهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَا يَنْقُصُ مَا عِنْدَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قَالَ: «**قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ**» أَيْ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ «**فَسَأَلُونِي**» طَلَبُوا مِنَ اللَّـهِ حَوَائِجَهُمْ المُخْتَلِفَةَ، فَأَعْطَى كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، لَمْ يُؤَثِّرْ ذَلِكَ عَلَى مَا عِنْدَ اللَّـهِ بِالنَّقْصِ، هَذَا يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ غِنَاهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثُمَّ قَالَ فِي خِتَامِ هَذِهِ الكَلِمَاتِ العَظِيمَةِ: «**يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا**» أَيْ: لَيْسَ لَكُمْ إِلَّا أَعْمَالُكُمْ، «**إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ**» التِي تَعْمَلُونَهَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، فَاللهُ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا عَلَى غَيْرِ عَمَلِهِ أَبَدًا، فَلَا يُنَعِّمُ اللهُ الكَافِرَ وَيُعَذِّبُ المُؤْمِنَ، هَذَا لَا يَلِيقُ بِهِ سُبْحَانَهُ، بَلْ يَضَعُ الأُمُورَ فِي مَوَاضِعِهَا، يُعَذِّبُ الكَافِرَ، وَيُنْعِّمُ المؤْمِن، فَضْلاً مِنْهُ وَإِحْسَانًا وَعَدْلاً وَكَرَمًا مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، « **إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ**».

فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الجَزَاءَ إِنَّمَا يَكُونُ عَلَى العَمَلِ لَا بِالنَّسَبِ وَلَا بِالجَاهِ وَلَا بِالحَسَبِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجُرَات: ١٣]، فَلَيْسَ هُنَاكَ مجَالٌ تَنَالُ بِهِ رَحْمَةَ اللَّـهِ إِلَّا العَمَلُ الذِي تَعْمَلُهُ، وَلَا تُعَذَّبُ إِلَّا عَلَى عَمَلِكَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤]، فَعَلَيْكَ أَنْ تَهْتَمَّ بِعَمَلِكَ؛ لِأَنَّهُ مَنَاطُ سَعَادَتِكَ أَوْ شَقَاوَتِكَ.

قَالَ: «**أُحْصِيهَا لَكُمْ**» وَهَذَا مِنْ فَضْلِهِ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ يُحْصِي الأَعْمَالَ،

يَعْلَمُهَا جَلَّ وَعَلَا، وَيَكْتُبُهَا بِوَاسِطَةِ الحَفَظَةِ المَلَائِكَةِ الذِينَ يَكْتُبُونَ أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ، وَهَذِهِ العِنَايَةُ مِنْهُ بِأَعْمَالِ بَنِي آدَمَ دَلِيلٌ عَلَى فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ، وَإِلَّا فَهُوَ لَيْسَ بِحَاجَةٍ إِلَى أَعْمَالِهِم، وَإِنَّمَا هُمُ المُحْتَاجُونَ وَمَعَ هَذَا فَاللهُ يُحْصِيهَا وَلَا يُضَيِّعُهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكَهْف: ٣٠]، وَقَالَ: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يُوسُف: ٥٦]، وقَالَ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البَقرة: ١٤٣]، فَهُوَ سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ، وَمَعَ هَذَا يَكْتُبُهَا فَقَدْ وَكَّلَ مَلَائِكَةً حَفَظَةً يَكْتُبُونَ أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ خَيْرَهَا وَشَرَّهَا، ثُمَّ يَوْمَ القِيَامَةِ يُعْطَوْنَ صَحَائِفَهُمْ التِي فِيهَا أَعْمَالُهُمْ، وَيُحَاسَبُونَ عَلَيْهَا، فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الإِنْسَانَ لَيْسَ بِمُهْمَلٍ، يَسْرَحُ وَيَمْرَحُ وَيَفْسُقُ وَيَكْفُرُ وَيَطْغَى وَيَتَجَبَّرُ وَيَظُنُّ أَنَّهُ مُهْمَلٌ، بَلْ أَعْمَالُهُ كُلُّهَا مُسَجَّلَةٌ عَلَيْهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النِّسَاء: ٤٠].

قَالَ: «**ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا**» مَتَى؟ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَ(ثُمَّ) هَذِهِ لِلْمُسْتَقْبَلِ، «**ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا**» كُلُّ إِنْسَانٍ يُجَازَى عَلَى عَمَلِهِ خَيْرًا أَوْ شَرًّا، وَيُوَفَّى عَمَلَهُ لَا يَضِيعُ مِنْهُ شَيْءٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ﴾ كِتَابِ المَلَائِكَةِ الحَفَظَةِ، ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكَهْف: ٤٩]، وَقَالَ: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ﴾ [المُجَادَلَة: ٦]، أَنْتَ تَنْسَاهُ وَلَا كَأَنَّكَ فَعَلْتَ شَيْئًا، وَلَكِنْ هُوَ مُدَوَّنٌ عَلَيْكَ وَسَتُوَاجِهُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَتَنَبَّهْ

لِنَفْسِكَ وَلَا تُغَامِرْ وَلَا تُخَاطِرْ بِهَا، لَا تَظُنَّ أَنَّكَ مَغْفُولٌ عَنْكَ، وَلَا تَظُنَّ أَنَّ مَا مِنْ أَحَدٍ يَتَمَكَّنُ مِنْكَ، بَلْ أَنْتَ تحْتَ نَظَرِ اللَّـهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ، وَأَنْتَ مُرَاقَبٌ عَنْ اليَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧]، قَعِيدٌ لَكَ مجَالِسٌ لَكَ وَأَنْتَ لَا تَرَاهُ مِنَ المَلَائِكَةِ، بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، كَمَا قَالَ ﷺ: «**يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ**»(١)، يحْصُونَ عَلَيْكُمْ أَعْمَالَكُمْ، «**ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا**» يَوْمَ القِيَامَةِ.

قَالَ: «**فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا**» أَيْ: جَزَاءً حَسَنًا، «**فَلْيَحْمَدِ اللهَ**» وَلَا يَقُلْ: هَذَا مِنْ كَسْبِي، أَوْ أَنَا حَصَّلْتُ هَذَا، بَلْ يحْمَدُ اللهَ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ لِأَنَّ الفَضْلَ مِنَ اللَّـهِ وَعَمَلُكَ لَا يُسَاوِي شَيْئًا، وَلَوْ أَجْهَدْتَ نَفْسَكَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، فَإِنَّ عَمَلَكَ لَا يُقَابِلُ نِعَمَ اللَّـهِ عَلَيْكَ، وَلَكِنَّ اللهَ يَتَفَضَّلُ عَلَيْكَ، وَيُضَاعِفُ لَكَ الحَسَنَاتِ فَضْلًا مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَلَا تَقُلْ هَذَا عَمَلي، أَوْ أَنَا أَسْتَحِقُّ هَذَا؛ بَلْ عَلَيْكَ أَنْ تحْمَدَ اللهَ؛ لِأَنَّهُ فَضْلٌ مِنَ اللَّـهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قَالَ: «**وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ**» يَعْنِي: غَيْرَ الخَيْرِ، «**فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**» لِأَنَّهُ بِسَبَبِهِ وَعَمَلِهِ، فَعَلَيْكَ أَنْ تَلُومَ نَفْسَكَ؛ لِأَنَّ هَذَا مَا قَدَّمْتَهُ لِنَفْسِكَ، فَلَا تَلُمْ أَحَدًا، أَوْ تَقُلْ: هَذَا ظُلْمٌ، أَوْ أَنَا لَمْ أَعْمَلْ هَذَا، أَوْ لَا أَسْتحِقُّ هَذَا، إِنَّمَا هَذَا جَزَاءُ عَمَلِكَ، فَسَتُوَاجِهُ عَمَلَكَ دَقِيقَهُ وَجَلِيلَهُ وَتَقْرَؤُهُ كَامِلاً، وَلَا تُنْكِرُ مِنْهُ شَيْئًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسْرَاء: ١٤]، فَعَلَيْكَ أَنْ تَعْرِفَ هَذَا وَأَنْ تَسْتَعِدَّ لَهُ.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٥)، (٣٢٢٣)، (٧٤٢٩)، (٧٤٨٦)، ومسلم (٦٣٢).

فَهَذَا حَدِيثٌ عَظِيمٌ وَجَلِيلُ القَدْرِ، كَانَ السَّلَفُ يُعَظِّمُونَهُ وَيخَافُونَ مِنْهُ إِذَا قَرَؤُوهُ؛ لِأَنَّهُ دَقِيقُ المعَانِي وَاضِحٌ لَا يحْتَاجُ إِلَى تَعَبٍ فِي فَهْمِهِ، كُلٌّ يَفْهَمُهُ العَامِّيُّ وَالمتَعَلِّمُ، وَهُوَ حُجَّةٌ مِنَ اللَّـهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَكَانَ أَبُو إِدْرِيسَ الخَوْلَانِيُّ إِذَا قَرَأَ هَذَا الحَدِيثَ جَثَى عَلَى رُكْبَتَيْهِ(١).

* * *

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).